دور الجند الأتراك في طرابلس الغرب وبلاد المغرب قبل العصر العثماني

د/ أحمد محمد إسماعيل الجمال
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية.
بكلية الآداب جامعة دمنهور

هذا البحث يعالج فترة ممتدة خلال النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي التي شهدت أحداثاً عصيبة بالغة الخطورة لمرحلة من مراحل الصراع بين الأيوبيين والموحدين، مما ترك أثراً عميقاً على مجرى تاريخ شمال إفريقية العربي الإسلامي طوال تلك الفترة، ولقد أسهمت الظروف بنصيب وافر في التمهيد لتلك الأحداث، وكان العالم الإسلامي يموج بمعطيات الصراع المحتدم نتيجة لاختلاف الأهواء وتضارب المصالح، وتكالب الأخطار التي تواجهها المجتمعات في الشرق والغرب، تبعا للصراع بين الدول الإسلامية ونصارى الشمال والغرب الأوروبي، في الوقت الذي عانت فيه تلك المجتمعات العربية والإسلامية من حالات مد وجذر بين التشرذم- بالتجزأة السياسية- والوحدة، يسيطر عليها في نهاية الأمر المصالح الذاتية، بدلاً من تجمع الجهود والتعاضد فيما بين جناحي العالم الإسلامي. وتمثل ذلك في الصراع بين العرب وبعضهم البعض من جانب، والعناصر الطارئة والمنضوية تحت لواء الدولة الإسلامية من ترك وبربر وغيرهم، من جانب آخر في مواجهة أخطار خارجية تمثلت في الحملات الصليبية، وحركات الاسترداد الإسبانية والبرتغالية.

العلاقات السياسية والصراع العسكري بين المشرق والمغرب في عهد الأيوبيين والموحدين:-

ذخرت تلك الفترة بأحداث جسام تشابهت في مظاهرها مشرقا ومغربا. ففي المغرب كان الموحدون في مواجهة قوى خارجية منظمة من نصارى إسبانيا المسيحية مصممة على استعادة أرض أخذت منهم قبل أربعة قرون ونصف، وانتهى الأمر في تلك الفترة بانتصار الموحدين في موقعة الأرك عام ٥٩١هـ/ ١١٩٤م، وبدأ الشرق يواجه حروب صليبية، أسفرت عن احتلال القدس سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م، واستقرار الصليبيين بالمشرق، إلى أن بدأت الصحوة مع بداية الدولة النورية، أدت إلى استعادة صلاح الدين الأيوبي للقدس عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، وسوف نتناول في هذا البحث جانب من جوانب الصراع- أو ما يطلق عليه الأعمال العدائية العسكرية، ومن ناحية أخرى محاولة التقارب السياسي بين الدولة الأيوبية والخلافة الموحدية، من أجل توحيد الجهود لمواجهة هجمات الحملات الصليبية والحد من أخطارها.

أولا: أحوال طرابلس الغرب وشمال أفريقية قبل وصول قراقوش:

- **العرب**: منذ منتصف القرن الخامس الهجري دخلت قبائل عربية[١]. إلى تلك المنطقة قادمة من مصر بتشجيع من الفاطميين لمناهضة المعز بن بأديس الذي تحول عنهم إلى العباسيين، وعندما أرادوا أن يهدموا دولته بعثوا بتلك القبائل العربية لتعيث في أرضه؛ فيما يعرف بتغريبة بني هلال[٢]، فنزلت سليم وأحلافها من رواحة وناصرة بمناطق عمرة وبرقة، وواصل بنو هلال زحفهم إلى أفريقية[٣]، فاقتسمت البلاد بينها[٤].

ويحدثنا الإدريسي أن بني كعب جعلت ما بين برقة وقايس موطناً، ونزلت سليم بين قابس وطرابلس، واستقر ذباب وعوف بين طرابلس وسرت. وقد أدت هذه الهجرات بآثار سلبية من الوجهة السياسية، حيث كانت علاقة العرب الهلالية بمن سبقهم من عرب أو سكان أصليين (بربر) علاقة تنافر وقتال وحرب، فسادت النزعة القبلية، وانعدمت الحكومة النظامية وانفراط عقد الأمن، مما ساعد على التباعد بين المشرق والمغرب براً، فهدد البدو طرق السفر حجاً وتجارة ورحلة في طلب العلم، وقد أثر ذلك في اقتصاد المنطقة، بسبب ما نتج عن الصراع من دمار للعمران الاقتصادي والعسكري، وتخريب للتحصينات الساحلية[٥].

وقد أدى التدخل الأجنبي من قبل جرجي (رجار) بن ميخائيل الأنطاكي صاحب صقلية للاستيلاء على الساحل الإفريقي إلى تأجيج الصراع المحلي[٦]، وقد زاد من حدته واشتعال أواره ظهور الموحدين وغلبتهم على المغرب الأقصى وأطراف الأوسط. وخشي الصقليون من أطماع الموحدين على الساحل الإفريقي، فأوعزوا إلى أئمة المساجد في طرابلس بذم الموحدين،

---

(١) ويعود أصل هؤلاء الأعراب (قبائل بني هلال) إلى ما بين البحرين والشام في جزيرة العرب، فكانوا يقطعون الطريق ويغيرون على الحجاج، إلى أن تحالفوا مع القرامطة فنفاهم الفاطميون إلى صعيد مصر عقابا لهم، فأقاموا هناك على عهدهم من الفساد والعيث ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتب اللبناني، طبعة بيروت ١٩٩٢م، م٦، ص١٥، ١٦.

(٢) ابن خلدون، العبر، م٤، ص٧٤- ٧٥، ج٦، ص١٥، ١٦؛ ابن عذاري المراكشي (أبو العباس أحمد بن محمد)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الأول، تحقيق ومراجعة ج.س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية، دار الثقافة، بيروت، لبنان ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م، ص٢٧٣؛ الاستقصا، ج٢، ص١٤٥- ١٥١، وهو ينقل عن ابن خلدون، وقد ذكر التجاني ذلك، ص١٦ وما بعدها ولكنه يختلف مع الآخرين فيمن المجيز من وزراء الفاطميين، كما أورد صاحب المعجب ذلك. المراكشي (عبد الواحد بن علي) المعجب في تلخيص أخبار المغرب تحقيق محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م، ص٢٢٤.

(٣) التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد)، رحلة التجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، تونس، المطبعة الرسمية ١٩٥٨م، ص١٦، ١٨؛ ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أحمد الجزري)، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص٨، ص٥٥، ٥٦؛ العبر، ج٦، ص١٥، ١٧، ١٨.

(٤) العبر، ج٦، ص١٩.

(٥) انظر التفاصيل في الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، بدون تاريخ، المجلد الأول، ص٢٨٣، ٢٨٤، ٢٩٧؛ وانظر، رحلة التجاني، ص١٦، ٩٦. ابن الأثير، الكامل، م٨، ص٥٥، ٥٦؛

(٦) راجع ابن الأثير الكامل، ج٩، ص١٩- ٢٠، ٢١؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الرابع والعشرون، تحقيق الدكتور حسين نصار، والدكتور عبد العزيز الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ج٢٤، ص٢٤٧- ٢٥٠؛ ابن خلدون، العبر، م٥، ص٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ج٦، ص١٩١، ١٩٨، ١٩٩؛ أماري، المكتبية العربية الصقلية، ص٣٩٦- ٣٩٧؛ عنان، القسم الأول، عصر المرابطين وبداية الموحدين، ص٢٨٩- ٢٩٢؛ أندريه جوليان، تاريخ أفريقية الشمالية، ص١٤١؛ عبد الكافي (أبو بكر) تاريخ صفاقس، الجزء الثاني، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، تونس ١٩٨٠م، ص٤٢؛

Reilly (Bernard F.), Cristianos y musulmanes, (1031- 1157) historia de espana, VI, Traduccion castellanade Jordin Betran, Barcelona, 1992, p. 230.

فثارت المدينة عليهم(١). فأرسل الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي جيشاً بقيادة عبد الله بن عمر الهنتاتي، وسعد الله بن يحيى عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م وهزم بنو هلال وأخضعهم(٢). وفتحت هذه الحملة أعين الموحدين على إمكانية السيطرة على إفريقية وطرابلس وبرقة، فضمها عبد المؤمن بن علي بين عامي ٥٥٣- ٥٥٤هـ/ ١١٥٨- ١١٥٩م(٣)، وبلغ جيشه جبل نفوسه(٤)، فشاد إمبراطورية ضمت المغرب الكبير بأجمعه(٥).

بعد ذلك سعى الخليفة الموحدي عبد المؤمن إلى تألف العرب والبدو، ورغبهم في الجهاد بالأندلس، فاستجابوا في عهده وفي عهد ابنه أبو يعقوب يوسف(٦). ولكن مع أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن اختلف الأمر وتبدل الحال، فكثرت فتن العرب، وغدا تغريبهم عقابا. ويبدو أن هذا التبدل طرأ نتيجة لعوامل جديدة، وهي ظهور الغز المصريين في منطقة برقة وطرابلس وإفريقية، ثم دخول الميورقيين إلى المنطقة وتحالف العرب مع كليهما، ولهذا شهد عصر المنصور الموحدي فتنا متعددة وثورات كثيرة ونزاعا متشعبا. ومن المرجح أن قراقوش استغل كثرة فتن العرب في بلاد المغرب وسرعة تغيرهم على سلطة الموحدين، حتى أن ابن أبي زرع يذكر أن أبي يوسف يعقوب ندم عل استجلاب العرب للمغرب لأنهم "أصل فساده"(٧).

من هنا عانت تلك المنطقة صراع قبلي عنيف في القرن الخامس الهجري، وتدخل أجنبي صقلي، ثم غزو موحدي، وهجمات لبني غانية وصراع وتحالفات من أجل السيطرة وبسط النفوذ. كما كان أول صدام بين الأيوبيين والموحدين في تلك المنطقة مع حملات قراقوش الأرمني من أجل الاستحواذ والسيطرة من جانب كافة الأطراف.

---

(١) رحلة التيجاني، ص٢٤١- ٢٤٢.

(٢) البيذق، أخبار المهدي بن تومرت، ص١١٤، ١١٥، ليفي بروفنسال، مجموع رسائل موحدية، نشر الأستاذ ليفي بروفنسال، الرباط ١٩٤١م، الرسالة التاسعة، ص٢٩- ٣٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ٤١؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٣٠٥- ٣٠٦، وانظر: رحلة التجاني، ص٣٤٤، المراكشي، المعجب ص٢٠٧؛ الاستقصا، ج٢، ص١٠٨، أماري، المكتبة الصقلية، ص٢٩٩؛ أندريه جوليان، تاريخ أفريقية الشمالية، تعريب محمد مزالي، البشر بن سلامة، الجزء الثاني، الدار التونسية للنشر، تونس ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٩م، ج٢، ص١٣٩؛ ابن خلدون، العبر، م٦، ص٢٧٩.

Huici Miranda(A), Historia Politica del Imperio Almohade, vol.I, Tetuan 1956, pp. 153- 169

Reilly (B.F), Cristianos y musulmanes, p. 229. Bourouiba (R.), Abd A1-Mumin,p. 44-45

(٣) المراكشي، المعجب، ص٢٢٨- ٢٣٠؛ الزركشي (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن لؤلؤ)، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق الأستاذ محمد ماضور، الطبعة الثانية، المكتبة العتيقة، تونس ١٩٦٦، ص١١- ١٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق الأساتذة محمد إبراهيم الكتاني، ومحمد بن تاويت، ومحمد بن زنيبر، وعبد القادر زمامة، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان ١٩٨٥م، ص٦٢- ٦٤؛ السلاوي (أبو العباس أحمد بن خالد الناصري)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق الأستاذ جعفر الناصري، محمد الناصري، الجزء الثاني، دار الكتاب، الدار البيضاء ١٩٥٤م، ج٢، ص١٣٩؛ وانظر، ابن صاحب الصلاة (عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي)، تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، السفر الثاني، تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٨٧م، ص١١٤- ١١٥.

(٤) عن جبال نفوسة، راجع ابن حوقل، صورة الأرض، ص٩٣، ٩٢.

(٥) رحلة التجاني، ص٧٦، ١٠١، ٢٤٣؛ ابن خلدون، العبر، م٦، ص٢٠١.

(٦) انظر البيان، قسم الموحدين، ص٦٢، ١٠٢.

(٧) ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي)، كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ١٩٧٢م، ص٢٣٠.

- **دخول بني غانية[١] إلى إفريقية:** حكم بنو غانية الجزائر الشرقية "ميورقة ومنورقة ويابسة"، حيث قام أمير المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين[٢] بتعيين محمد بن علي بن يحيى المسوفي المعروف بابن غانية واليا عليها[٣]. ثم ولي بعده ابنه عبد الله فحقد عليه أخوه إسحاق وتآمر على قتله فقتل، وولى مكانه الحكم[٤].

- **غزو بجاية[٥]:**

في تلك الفترة بدأ الموحدون أتباع المهدي بن تومرت يخوضون المعارك لإسقاط دولة المرابطين حتى تم لهم ما أرادوا بدخول مراكش، ووسعوا رقعة دولتهم الجديدة حتى شملت كل المغرب والجزائر وتونس وليبيا، وأجزاء كبيرة من الأندلس. من هنا رأى إسحاق بن غانية الوالي على جزر البليار، أنه من الأحسن له موادعة ومهادنة الموحدين لتنامي قوتهم، ومع ذلك ظل يدعو للعباسيين. ولكن في سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م توالت كتب الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن إلى إسحاق بن غانية تدعوه إلى الدخول في الطاعة، ولكنه ما لبث أن توفى- أي إسحاق- سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م[٦]. فلما تولى بعده ابنه محمد قرر الدخول في طاعة الموحدين ولكن إخوته ثاروا عليه وعزلوه وولوا مكانه أخاه علي، وما لبث أن قتل الخليفة أبو يعقوب في معركة شنترين سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م[٧].

في تلك الفترة راسل بعض بني حماد بن غانية ودعوهم لغزو بجاية، فتوجه علي بن غانية إلى ثغر بجاية بأسطول من اثنين وثلاثين سفينة[٨]، في شهر شعبان ٥٨٠هـ/ نوفمبر ١١٨٤م[١]، وبعد هذا الانتصار أخذ أهبته لتحقيق مشروعه بغزو المغرب الأقصى لاستئصال الدولة الموحدية[٢]، فاستولى على الجزائر، ثم مليانه، وقلعة بني حماد[٣].

---

(١) ينتسب بنو غانية، إلى أمهم غانية، وكان المرابطون ينسبون أبنائهم إلى أمهاتهم بسبب أن الرجال يتزوجون بعدة نساء فينسب الأولاد إلى الأمهات تمييزا لهم عن بعضهم البعض في البيت الواحد. وينتمي بنو غانية إلى قبيلة مسوفة البربرية، وكانت مضارب هذه القبيلة تمتد في الصحراء بين سجلماسة في الشمال وادغشت في الجنوب؛ وكانوا معدودين مع قبيلة بنو جدالة ولمتونة بطن من بطون صنهاجة.

(٢) انظر، خير الدين الزر كلي، الأعلام قاموس لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين. والمستشرقين دار العلم للملايين بيروت لبنان، الجزء، ٨، ١٩٥٥م. حمدي عبد المنعم حسين، تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، دولة علي بن يوسف المرابطي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية ١٩٨٦م.

(٣) ابن خلدون، المصدر السابق، م٦، ص ٢٨٦- ٢٨٧.

(٤) ابن خلدون، المصدر السابق، م٦، ص ٢٧٨؛ عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص٢٦٨، ٢٦٩.

(٥) يذكر مؤلف الاستبصار أن بناء بجاية جاء نتيجة لتوغل العرب في أفريقية وعيثهم فيها، وأنهم لما قاموا بتخريب القيروان، ومعظم مدن أفريقية، فر منها صاحب القيروان، وخرج لنصرته ابن عمه المنصور بن حماد، فهزمه العرب هزيمة شديدة ففر إلى قاعدته بالقلعة، ولكن العرب جدوا في أثره وطاردوه، فبحث عن موضع يختط لنفسه فيه محلة جديدة لا يلحقه فيها شر العرب، فدله بعض أصحابه على موضع بجاية، وكان مرسي قديما فاختطها فيه، ونقل إليها مركز حكمهن واتخذها دار ملكة. مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية ١٩٥٨م.ص ١٢٩، ١٢٨؛ الأثير، الكامل، م٨، ص١٠٢؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٢٢٣- ٢٢٧. وعن وصف بجاية وما تميزت به، راجع الإدريسي، نزهة المشتاق، م١، ص٢٥٩- ٢٦١.

(٦) المراكشي، المعجب، ص٢٦٩.

(٧) ابن عذاري، قسم الموحدين، ص١٦٤؛ الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق الأستاذ محمد ماضور، الطبعة الثانية، المكتبة العتيقة، تونس ١٩٦٦م، ص١٤؛ وانظر: مؤلف مجهول، كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف أندلسي من أهل القرن الثامن الهجري، تحقيق الدكتور سهيل زكار، الأستاذ عبد القادر زمامة، دار الرشاد الجامعية، الدار البيضاء، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ص١٥٨.

(٨) ابن خلدون، العبر، م٦، ص٢٨٧، ٢٨٨؛ بينما يذكر ابن الأثير، أن العدد كان عشرين سفينة، الكامل،

لقد كان غزو بني غانية لبجاية مفاجئة للخليفة الموحدي المنصور أبي يوسف يعقوب بن عبد المؤمن، الذي لم يكن قد انقضى على توليته الحكم سوى خمسة أشهر، فكان لزاماً عليه أن يتحرك ليتدارك الأمر قبل استفحاله، فأمر المنصور بتجهيز حملة برية قوامها اثنا عشر ألف جندي، وأسطول بحري.(٤) وأرسل الموحدون وهم في طريقهم إلى أهالي المدن يعدونهم بالأمان والصفح، فتخلى أهالي تلك المدن عن بني غانية، وسارت القوات الموحدية تسترجع المدن الواحدة تلو الأخرى، الجزائر ومليانة حتى دخلت بجاية ١٩ صفر ٥٨١هـ/ ٢٢ مايو ١١٨٥م(٥)، وقد أدرك علي بن غانية بعد هزيمته الفرق الشاسع بين قوته وقوة الموحدين.

لكن بالرغم من ذلك لم ييأس بنو غانية، بل فروا إلى بلاد الجريد بتونس، وأخذوا يألبون الأعراب، وجمعوا منهم قوات ضخمة، وأخذوا يحتلون بها العديد من المدن في أفريقية؛ وهنا بدأت ثورة بني غانية تعرف انحرافاً خطيراً، وهو انزلاقها إلى طريق السلب والنهب للحصول على الأموال، وتمويل الحروب ودفع أجور الأعراب مقابل الحرب معهم.

ويبدو هذا التبدل طرأ نتيجة عوامل جديدة، هي ظهور الغز المصريين في منطقة برقة وطرابلس وإفريقية، ثم دخول الميورقيين إلى المنطقة وتحالف العرب مع كليهما. من هنا أضحت تلك المنطقة مجالا للصراع بين الموحدين والعرب وبني غانية، كما كان على أرضها أول اتصال بين الأيوبيين والموحدين مع حملات قراقوش الأرمني.

- **دخول قراقوش إفريقية وتحالفه مع ابن غانية:**

- الترك (الأغزاز)(٦). لم يكن دور الأتراك في إفريقية الشمالية والمغرب قد بدأ في عهد العثمانيين. ولكن دورهم يرجع إلى ما قبل ذلك بوقت طويل حيث بدأ مع أوائل العصر العباسي، عندما قام الخلفاء العباسيون بتعيين ولاة من الترك على مصر منهم أشناس وإيناق والفتح ابن خاقان، إلى أن ولى الخليفة العباسي المستعين بالله أورخز التركي والياً على مصر سنة ٢٤٥هـ/ ٨٦٨م، ولم يذهب إليها بل ولى أحمد بن طولون زوج ابنته نائباً عنه، من هنا بدأ عهد الطولونيين بمصر والشام، ثم تبعه عهد

---

(١) المراكشي، المصدر السابق، ص٢٧٠؛ ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣م، ص٩٥؛ ابن الأثير، المصدر السابق، م٩، ص١٦٦؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، المجلد السابع، دار صادر، بيروت، لبنان، ص١٨؛ Les Benous ghanyas dernier représentant deL empire almoravide et leur lute contre L empire almohade. 1903. P. 34.؛ محمد عبد الله عنان، دولة المرابطين والموحدين، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٦ من القسم الثاني، ص١٤٩.

(٢) سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص٢٣١.

(٣) رسائل موحدية، الرسالة التاسعة والعشرون، ص١٧٢.

(٤) ابن خلدون، العبر، م٦، ص٢٨٧؛ ابن عذاري: البيان، القسم، الموحدي، ص١٧٧؛ رسائل موحدية، الرسالة التاسعة والعشرون، ص ص١٧٦؛ السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، سالم (السيد عبد العزيز)، المغرب الكبير (العصر الإسلامي)، الجزء الثاني، الإسكندرية ١٩٦٦م، ص٨٠٣.

(٥) ابن عذاري: البيان، القسم، الموحدي، ص ١٧٨؛ ابن خلدون، العبر، م٦، ص٢٨٧.

(٦) الغز: جنس من الترك بلادهم في أقصى المشرق على تخوم الصين، وعرفهم العرب أيام الفتوح الأولى، حيث دخلوا بلاد المسلمين كأسرى كأسرى ومماليك، ولم يلبث الكثير منهم أن نالوا حريتهم، فبرزوا في الحياة العامة والعسكرية كوزراء وقواد، ويلاحظ أن الأسرى لم يكونوا من الغز إذ نرى فيهم العجم والكرد والأرمن وغيرهم. وعندما يتحدث كتاب العربية عن هؤلاء فهم يسبوتهم إلى ما شاءون من الأجناس، لا يعنيهم من تلك النسبة إلا الإشارة إلى سابقيهم في الرق والمملوكية؛ ومن هنا كانت تسمية هؤلاء بالغز حينا، وبالترك والمماليك في أحيان كثيرة، انظر المركشي، المعجب، ص٢٨٨ هامش (١).

الدولة الإخشيدية، ثم جاء السلاجقة أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي واستولوا على بلاد الإسلام، ثم وصل الأتراك إلى مصر تحت قيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي في سنة ١١٦٩م، وحكموا مصر وما جاورها حتى سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، عندما استولى على الشام ومصر وغيرها من بلاد العرب.

وكان أول ظهور للترك في شمال أفريقية (غربي مصر)، عندما قام العباس بن أحمد بن طولون بالفرار من أبيه إلى برقة وطرابلس الغرب سنة ٢٦٤هـ/ ٨٧٩م، وحكم فيها مدة قصيرة، ثم سار إلى أفريقية (تونس) سنة ٢٦٦هـ، ولكنه اضطر في النهاية إلى الرجوع إلى مصر نتيجة للظروف المحيطة به من قبل الأغالبة الذين ألبوا عليه البربر، وبعد أن عفا عنه أبوه(١).

ويذكر صاحب روض القرطاس أن طائفة من الغز (الأتراك) جاؤوا إلى المغرب في أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، واستخدمهم الأمير يوسف بن تاشفين المرابطي في جيشه(٢)، ثم تبعه أحد أولاد الملوك من السلاجقة يسمى شاه ملك. وجاء مع حاشيته إلى مصر ودخل في خدمة الفاطميين، ثم وقع بينه وبين صاحب مصر تنافر، وتوجه نحو المغرب مع أصحابه، واستولى على طرابلس الغرب. فلما سمع به تميم بن معز بن باديس حاكم تونس وطرابلس، أرسل جيشا إليه واسترد منه طرابلس وما والاها، واستخدمه مع أصحابه في جيشه، ثم اختلافا، ففر شاه ملك أولا إلى صفاقس ثم إلى قابس، وانقطعن أخباره(٣).

أولية قراقوش والأسباب التي دفعت به إلى التوجه ناحية تلك المنطقة من شمال أفريقية:-

هو شرف الدين قراقوش (قراقوش: اسم تركي معناه العقاب الطائر) مملوك الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شادي بن أخي السلطان صلاح الدين. (وهو غير بهاء الدين قراقوش وزير صلاح الدين فيما بعد) وذكر التجاني سبب وصول قراقوش إلى هذه البلاد بقوله: "وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب إنما ملك هو وعمه أسد الدين شركوه بجيش نور الدين محمود بن زنكي وقوة سلطانه، وهما في ذلك من جملة أمرائه وأعوانه، وبعد استيلائه على مصر وموت أسد الدين، حدثت بين صلاح ونور الدين وحشة، خاف بسببها صلاح الدين أن يتحرك نور الدين على مصر ويستولي عليها، فاحتاط لنفسه وبنى على المغرب ومعه طائفة من جنده منهم مملوكه قراقوش التقوي، وطائفة أخرى منهم إبراهيم بن قراتكين المعظمي (نسبة إلى الملك المعظم شمس الدولة أخي صلاح الدين)، حتى وصل إلى طرابلس، واستولى على جبل نفوسة، وسار ابن

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م، المجلد٦، ص٢١.

(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص١٣٩.

(٣) ابن الأثير، الكامل، المجلد ٨، ص١٧٤.

قراتكين إلى قفصة(١). وخطب فيها للخليفة العباسي وصلاح الدين في حدود سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤- ١١٧٥م، وظل بها حتى قتله المنصور(٢).

أما جهود قراقوش في شمال إفريقية:-

ينقل المقريزي عن القاضي الفاضل أنه حدث في مصر سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧٢م قحط وغلاء. ولهذا قرر صلاح الدين وأصحابه في مجلس مشورة في الإسكندرية أن تغزو طائفة من العساكر المغرب تحت قيادة تقي الدين عمر .ولكن حدث مانع ورجع تقي الدين عن قراره، بل اكتفى بتحصين قلعة أزبري في برقة مصر(٣)، ثم زال القحط مع هذا غزا شرف الدين قراقوش من مماليك تقي الدين مع طائفة من الجند الغرب ووصل أولا إلى قلعة أزبري. ثم استمر سيره حتى وصل إلى برقة ليبيا واستولى عليها. ويذكر نور الدين محمود بن زنكي في رسالة كتبها إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله في سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م أن طائفة من عساكره فتحوا بلاد النوبة والبرقة حتى بلغوا حدود المغرب(٤).

ربما لم يلبث قراقوش في البرقة كثيرا، بل رجع بعد مدة قصيرة إلى مصر، ثم سافر في أواخر سنة ٥٦٩هـ وأوائل سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤- ١١٧٥م إلى الغرب مرة أخرى. ووصل إلى مدينة سنترية(٥)، (سيوة)، ثم جاوز إلى أوجلة(٦)، وزلة(٧)، في الجنوب الغربي من أجدابية. ثم تقدم إلى فزان فافتتحها، ودخلت تحت حكمه قبيلة بني الخطاب الهواريين التي كانت عاصمتها زويلة(٨). وأخذ من صاحبها عشرين ألف دينار، وتزوج ابنته مقابل أن يحفظهم من العربان (الأعراب)"، غير أنه فيما يبدو أساء السيرة وظلم، فانتهز أهالي المدينة خروجه إلى الأزرقية فثار أهلها على عامله صباح وقتلوا عدداً من رجال قراقوش، فلما

(١) قفصة: مدينة من البلاد الجريدية، وهي كبيرة قديمة أزلية، وهي متوسطة بين القيروان. الإدريسي، نزهة المشتاق، المجلد الأول، ص ٢٧٧- ٢٧٩؛- الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق الدكتور إحسان عباس، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٤م.، ص٤٧٧- ٤٧٩؛ وانظر الاستبصار، ص١٥٠- ١٥١، البكري المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، ص٤٧؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص٩٢؛ ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ج٢، ص١٤٣- ١٤٥.

(٢) رحلة التجاني ص١١٤؛ والمقريزي (أحمد بن علي) كتاب السلوك لمعرفة الملوك، الجزء الأول، القسم الأول، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، الطبعة الثالثة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م، ينسب له ما نسبته المصادر الأخرى لقراقوش. ص٦٦.

(٣) السلوك، تحقيق مصطفى زيادة، القاهرة، ج١، ص. ٤٨؛ وانظر أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي)، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم الزيبق، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧م، ج١، ص٢٦٧.

(٤) البنداري (الفتح بن علي)، سنا البرق الشامي،" اختصار من كتاب البرق الشامي للعماد الكتاب الأصفهاني" تحقيق تحقيق فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي بمصر ١٩٧٩م، ص٧٨؛ ابن واصل، مفرج الكروب، تحقيق جمال الدين الشيال، ج١، ص٢٣٥- ٢٣٦.

(٥) سنترية قال عنها الإدريسي: مدينة كثيرة العيون والثمار والحصون أهلها بربر لا عرب فيهم وتسير من سنترية طرق شتى إلى أودية الواحات. الإدريسي، المصدر السابق، م١، ص١١٩- ١٢٠.

(٦) أوجلة قال عنها البكري: مدينة عامرة كثيرة النخيل وأوجلة اسم ناحية واسم المدينة ارزاقية واوجلة قرى كثيرة فيها نخل وشجر كثيرة وفواكه وبمدينتها مساجد وأسواق. البكري، نفس المصدر، ص١٢؛ الإدريسي، المصدر السابق، م١، ص٣١٢.

(٧) زلة (زالة) قال عنها الإدريسي:" ومن أوجلة إلى مدينة زالة عشر مراحل، وهي مدينة صغيرة ذات سوق عامرة وبها أخلاط من البربر من هوارة وتجارات..." الإدريسي، نفس المصدر، ص٣١٢.

(٨) زويلة قال عنها البكري: مدينة غير مسورة في وسط الصحراء وهي أول حد بلاد السودان وبها جامع وحمام وأسواق ويجتمع بها الرفاق من كل جهة منها ويفترق قاصدهم وتتشعب طرقهم وبها نخيل وبسائط للزرع تسقى منها الإبل. البكري، المصدر السابق، ص١٠؛ الإدريسي، المصدر السابق، م١، ص٣١٢- ٣١٣.

بلغ ذلك قراقوش رجع إليهم ودخل البلد عنوة وقتل منهم سبعمائة وستين رجلا(١)، وخطب فيها لصلاح الدين وابن أخيه. ويذكر التجاني أنه قتل في هذه المرة أمير بني الخطاب محمد بن الخطاب بن يسليطين ليصادر أمواله(٢).

وفي سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م غزا إبراهيم بن قراتكين السلاحدار أيضا من مماليك قراقوش من مصر الغرب والتحق بقراقوش وأصحابه، وساروا جميعاً إلى مدينة روحان (غريان) وحاصروها أربعين يوماً حتى فتحوها عنوة، وقتلوا من أهلها كثيراً، وفرضوا عليها ضريبة سنوية تبلغ ١٢٠٠٠ دينار. ثم فتح إبراهيم بلاداً في جبال نفوسة. وأما قراقوش فقد رجع إلى مصر بعد أن أرسل طائفة من عسكره إلى سودان (فزان) واستولوا عليها(٣).

وقوي أمر قراقوش تباعاً، وغزا الغرب في أول سنة ٥٧٥هـ/ يونيو ١١٧٩م، ومعه من أصحابه أربعمائة فارس من الغز أتراك وأكراد وأكادش، ووصل في ٤ صفر/ ١٢ يوليو إلى السويقة (سويقة ابن مقتود) التي استقبله فيها أمراء قبيلة ذباب في رئاسة حميد بن جارية، ثم توجه معهم نحو زليطين ثم إلى طابية، ومنها إلى لبدة، ثم توجه إلى مسلاته في جبال نفوسة، وبقي هناك أياماً، ثم توجه إلى الشمال ونزل في قصر قرقوش غربي طرابلس، وجاءت إليه من الأطراف العرب من قبيلة ذباب واجتمع عنده نحو خمسة آلاف فارس(٤). ونهضوا معه إلى جبل نفوسة- الواقعة في جنوبي طرابلس الغرب، فاستولى عليه واستخلص منه أموالاً عظيمة فرقها في حلفائه العرب. وقد رافق قراقوش في مغامرته هذه أيضاً إبراهيم بن قراتكين بجنده(٥). ولكن في سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م، لما رأى ابن قراتكين كثرة عساكر قراقوش خاف منه وترك جبال نفوسة، وسار قراقوش إلى مدينة ماعرمس ووقعت الحرب والصراع بينهما. وقام قراقوش بمحاولة إفساد العرب على أهليهم، فأخذ هو جانب ذباب وزعامتهم في حميد بن الجارية، ضد زغب وزعيمهم ناصر الدين إبراهيم، ويتضح ذلك في قول قراقوش لصاحبه حميد: "يا أمير إنما قصدي أن أستفسد جماعة من الأتراك الذين عند إبراهيم ويقل أصحابه ونقوى عليه"(٦). وأراد قراقوش القضاء على إبراهيم زعيم زغب بواسطة ذباب غير أن الجانبين العربيين (ذباب وزغب) أقدما على نهب خباء قراقوش وإبراهيم على حد سواء، ولما شاهد جند الأتراك هذا الموقف الذي تضامن فيه عرب ذباب وزغب، خافوا أن يفتكوا بهم فهرب بعضهم، فكانت الدائرة فيها على شرف الدين قراقوش بعد معارك عنيفة، وتفرقت جند ذباب من حوله، وانتهب معسكره(٧).

---

(١) السلوك، المصدر السابق، ج١، ص٦٠؛ الروضتين، ج١، ص٤١٩؛ عز الدين أحمد موسى، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي- دار الشروق، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٢٦.

(٢) التجاني، الرحلة، نشر حسن حسني عبد الوهاب، تونس، ١٩٥٨، ص١٢٢- ١٢٣؛ ابن غلبون (أبي عبد الله محمد بن خليل)، تاريخ طرابلس الغرب "المسمى التذكار" نشر الطاهر أحمد الزاوي، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٩هـ، ص٥٨- ٥٩؛ وانظر، أبو شامة، المصدر السابق، ج١، ص٢٦٩- ٢٧٠؛

(٣) أبو شامة، المصدر نفسه، ج٢، ص١٦؛ السلوك، المصدر نفسه، ج١، ص٦٥، ٦٦.

(٤) ابن المظفر (محمد بن عمر المظفر بن شاهنشاه، الأيوبي، أبو المعالي، ناصر الدين، المنصور)، مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق الدكتور حسن حبشي، نشر عالم الكتب- القاهرة، ص٣٤.

(٥) إبراهيم بن قراتكين سلاح دار المعظمي وهو منسوب إلى الملك المعظم شمس الدولة أخو صلاح الدين. انظر، التجاني، رحلة التجاني، ص١١٢.

(٦) مضمار الحقائق، ص٣٥.

(٧) مضمار الحقائق، ص٣٥، ٣٦، ٣٧.

يقول صاحب المضمار، "ولما رأت الأتراك ما فعلته ذباب خافوا القتل، فقوم قفزوا وقوم أخذوا وصارت الكسرة على شرف الدين وعاد فلم يجد ثقلا ولا شيئا. وكان له من الأثقال شيء عظيم ولقد حدثني من أثق به أن شرف الدين حلف له بالله تعالى أن الذي كان تحت ثقله لنفسه ألفا وثلاثمائة جمل وأما الأتراك فللواحد أربعون جملا وثلاثون جملا وأقل وأكثر"(١). ولم يبق له ولا لجنده ملبس ولا مأكل، حتى أنه شكا حميد بن جارية قومه وما فعلوه به، فأمد قراقوش بحاجته. ووصل قراقوش إلى طرابلس في أربعين فارساً ونزل على مدينة تاجرة قرب طرابلس. ولما رأته زغب خافت وحاولت الصلح بين إبراهيم وقراقوش. كما كان عساكر إبراهيم السلاحدار لا يثقون به كثيراً، لهذا تركوه بعد مدة قصيرة والتحقوا بقوات قراقوش. بناء على ذلك أوصاه الذباب بالمصالحة مع قراقوش. وتردد الرسل بين الجانبين وتصالحا على أن يكون مقرة(٢) وغريان وقلعة أم العز ويفرين وجميع المنطقة الشرقية من جبال نفوسة(٣) إلى سماح بيد قراقوش، وسماح والمنطقة الغربية من جبال نفوسة بين إبراهيم، وما فتح من بلاد المغرب بعد ذلك يكون مناصفة بين الاثنين(٤).

وظل قراقوش بقية سنة ٥٧٥هـ في طرابلس أمنت فيها ذباب من غارات زغب، إلا أنها استغلت هذه الهدنة وغدرت بالأتراك من قوات قراقوش. فكانت تسرقهم وتقتل من تلقاه من الأتراك منفرداً، وإزاء ذلك قرر قراقوش الانتقال إلى قابس من أرض إفريقية في سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م(٥). والواقع أن القرار الذي اتخذه قراقوش بالانتقال نحو قابس إنما تم بعد أن أمن جانب إبراهيم زعيم زغب، فقد أخذ عليه المواثيق والعهود بعد أن غدر الواحد منهم بالآخر، وقبل أن يرحل قراقوش خاطب إبراهيم بقوله: "تركت هذه البلاد وأهلي بقلعة أم العز– وهذه القلعة تطل علي شرق جبل نفوسه– في وديعتك وأنا متوجه، فإن فتح الله تعالي علي واستغنيت عنها أعطيتك الجميع"(٦).

ثم مضى قراقوش غرباً نحو بلاد إفريقية وأوغل فيها وأخذ يفتتح الحصون والقلاع مستغلاً ثورات العرب على بني عبد المؤمن وتمردهم عليهم، فيؤلب القبائل بعضها على بعض كما حدث بين عثمان وفروخ صاحبي قلعتين بمدينة دمر، فطلب فروخ مساعدة قراقوش ضد عثمان الذي استنفز بدوره البربر بقوله: "أن هؤلاء الغز قافلة" لكثرة من انحاز إلي جانب قراقوش، وخوفاً منه بسبب قوته وبطشه بأعدائه. وحدث أن دخل قراقوش قلعة عثمان وأعمل السيف في رقاب أهلها من البربر، كما بطش بأهل المناطق المحيطة بجبل نفوسه ومطماطة وملاقة بحجة أنهم قوم خوارج. وطلب عثمان الأمان، فأمنه قراقوش بشرط أن يظفر

---

(١) مضمار الحقائق، ص٣٥– ٣٧.

(٢) مقرة: مدينة بالمغرب في بر البربر قريبة من قلعة بني حماد، بينهما وبين طبنة ثمانية فراسخ. انظر، ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي) معجم البلدان، طبعة بيروت، ١٩٥٥– ١٩٥٧م، م٥، ص١٧٥.

(٣) نفوسه: جبال في المغرب بعد إفريقية عالية نحو ثلاثة أميال. انظر، ياقوت، معجم البلدان، م٥، ص٢٩٦– ٢٩٧.

(٤) مضمار الحقائق، ص٣٦، ٣٧، ٣٨.

(٥) مضمار الحقائق، ص٣٨.

(٦) مضمار الحقائق، ص٥٣.

بالجبل وقسمه إقطاعات للأجناد، وأمن من بقي من أهل القلعة مقابل مبلغ معين من المال، ثم استولى على قلعة العطش(١)، وأعطى لأهلها الأمان.

وفي سنة ٥٧٦هـ- ١١٨٠م رحل قراقوش "عنها إلى قلعة يقال لها- أم لامة- فنزل قريباً منها، وهي في الحصانة على حالة لا يقدر الإنسان عليها، فأقام تحتها مدة شهر، حتى استنزل أهلها من البربر، وأخذ شرف الدين منها أموالاً وذخائر عظيمة ورحل عنها بعد ما سلمها للشيخ، (رئيس القلعة) واستحلفه أنه متى طلبها وسير إليه من يكون فيها سلمها إليه"(٢).

وفي سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م توجه قراقوش إلى منطقة مطماطة التي تقع بين قابس وقفصة(٣). ومنها إلى إفريقية ونزل على أربس وهي مدينة عظيمة وحاصرها ولكنه لم يقدر عليها، فرحل عنها إلى سوبيريه ولم ينزل عليها بل أغار على بلادها، وأوغل في بلاد إفريقية وانتهب منها ما قدر عليه وغنم أصحابه الغنيمة العظيمة، وعاد إلى قفصة بمكاتبة كانت من بعض شيوخها إليه، والتي كان الموحدون قد أخذوها من بني الرند(٤)، رؤساء قفصة فمكنوه من البلاد لانحرافهم على بني عبد المؤمن(٥)، في سنة ٥٧٥هـ(٦).

وفي أواخر سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م نزل قراقوش موضعاً قريباً من القيروان يسمى سكة وبصحبته من العرب سليم الشريد في حوالي ألف فارس، كما وصل إليه حميد بن جارية زعيم ذباب في ٢٠٠ فارس. وما أن تقابل القائدان العربيان حتى نشب بينهما القتال لخصومة قديمة بينهما. وانحاز قراقوش في هذا القتال إلى حميد، بينما انسحبت مشايخ الشريد وتركوه وحيداً، يلاقي مصيره أمام قوات الموحدين، الذين ظهروا آنذاك بقيادة أبي موسى بن عبد المؤمن في نحو عشرة آلاف فارس وعشرة آلاف راجل. فصالح قراقوش قوات الشريد وسعت هذه القوات إلى الاجتماع معه وهجموا علي الموحدين هجمة واحدة، انكسر فيها الجيش الموحدي. وفي هذه المعركة غنم قراقوش وأسر عدداً كبيراً من قواد الموحدين، منهم ابن مثني صاحب ديوان إفريقية والقاضي ابن ماسكة قاضي إفريقية، وجماعة كبيرة غيرهما حاولوا فداء أنفسهم بمبالغ من الأموال(٧). وقسم قراقوش الغنائم علي جنده الأتراك والأكراد. وفي أثناء تقسيم الغنائم وصلته الأنباء بنكث إبراهيم بأهله في قلعة أم العز، فقرر العودة.

---

(١) وعنها يقول صاحب المضمار: قلعة العطش وهي قلعة عجيبة حكى لي بعض أصحابي ممن أثق به بعد ما أقسم بالله أنه ما رأي بالشام قلعة أعلى منها ولا أحصن فنزل تحتها وهي عالية جدا لا يصل إليها النشاب. مضمار الحقائق، ص٥٤.

(٢) مضمار الحقائق، ص٥٥، ٥٦، ٥٧.

(٣) مضمار الحقائق، ص٣٨، ٥٧.

(٤) بني الرند: كان يحكم قفصة عامل لصنهاجة هو عبد الله بم محمد بن الرند، وأصله من جربة من بني صدغيان، وكان مسكنهم في بلدة الجوسين (أو الجليين) في جهة نفزاوة، وحسب رواية المؤرخ الحفصي بن نحيل، كان ينتمي إلى بني مرين التابعين لمغراوة، وقد نجح في بسط سلطانه على المدينة وتأمين سكانها وقطع دابر الفساد، وضمان أمن المسافرين مقابل دفع إتاوة للأعراب. وفي عام ٤٤٥هـ/ ١١٥٠م أعلن استقلاله، وخضعت له أغلب دن توزر وقفصة والحامة ونفزاوة وسائر أعمال قسطنطينية، وأسس أسرة حاكمة صغيرة هي أسرة بني الرند، وتوفي سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢- ١٠٧٣م. واستمر حكم تلك الأسرة إلى أن قام الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي بفتح أفريقية كلها تقريبا ومن بينها قفصة سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م في عهد يحيى بن تميم بن المعتز بن الرند. ابن خلدون، العبر، م٦، ص١٩٥- ١٩٦.

(٥) رحلة التجاني، ص١٠٣، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤؛ وانظر أيضا: ابن خلدون، العبر، م٦، ص٢٢٧.

(٦) مضمار الحقائق، ص٦٧، ٦٨.

(٧) مضمار الحقائق، ص٧٠.

وفي طريقه إلى طرابلس تلقي طاعة كل من ذباب وزغب. أما إبراهيم فلم يسعه بعد سلسلة من المحاولات للوقوف ضد قراقوش إلا أن يطلب العفو، فشرط عليه قراقوش أن يتوجه إلى طرابلس ومنها في مركب إلى الديار المصرية[١].

وفي طرابلس تمت الحيلة لمنع سفر إبراهيم إلى مصر، عندما حثه والي طرابلس ابن مطروح عبد المجيد، الذي كان على ولائه للخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن، على التوجه إلى المغرب. وفعلا انتقل إبراهيم في مركب إلى تونس حيث تلقاه واليها عبد الوحيد وسيره إلى مراكش[٢].

ثم حاول قراقوش الاستيلاء على قابس، فاشتبك مع أهلها البربر وأوقع بهم الهزيمة، وغنم منها الكثير من الأموال والأقوات وزعها على أصحابه وأجناده. ويذكر المقريزي عن القاضي الفاضل أن إبراهيم أرسل رسالة إلى صلاح الدين في أول هذه السنة وذكر فيها أنه خطب له وضرب باسمه سكة في جميع بلاد هوارة وزواوة ولواتة وجبال نقوسة وغدامس، وهي بلاد طولها وعرضها مسيرة خمسة وعشرين في خمسة وعشرين يوما[٣].

ثم وفد إليه مسعود بن زمام أمير بن رياح، وكان من الخارجين على بني عبد المؤمن فانضم إليه بقواته، وضرب قراقوش بقواته المشتركة الحصار حول طرابلس، وكانت خالية من الأجناد والأقوات، فاستولى عليها بأيسر أمر، وذاع صيته واشتد ساعده، وهرعت طوائف العرب من كل فج إلى لوائه، وملك قراقوش كثيراً من أنحاء إفريقية المجاورة، وتضخمت موارده وقواته، ومعظمها من العرب اللذين عاثوا فساداً في تلك الأنحاء "بما جبلت عليه من التخريب والنهب والإفساد بقطع الأشجار والثمار وغير ذلك" وأخذت نفسه تحدثه بالاستيلاء عل سائر إفريقية[٤].

وكان ابن غانية يخطط بنفس طريقة قراقوش أي الاستعانة بالأعراب في الحروب فلما بلغه انضمامهم إلى قراقوش انزعج وخشي أن يستأثر بهم دونه، غير أنه ما لبث أن رجع عن رأيه ورأى أنه يمكنه أن يتحالف مع قراقوش طالما أن الهدف واحد (القضاء على الدولة الموحدية) فأرسل إليه في سنة ٥٨١هـ إننا قوم من بني العباس ونريد دولتهم وأن نكون "نحن وإياكم مجتمعين"[٥]. فتحالفا وشرعا يحتلان مدن إفريقية الهامة الواحدة تلوى الأخرى، فساروا أولا إلى حامة البهاليل قرب قابس فحاصروها ودخلوها عنوة وقتلوا نحو ألف وسبعمائة رجل من أهلها، ثم ساروا إلى قابس[٦]. وافتتحوها وجعل قراقوش فيها كل

---

(١) مضمار الحقائق، ص٧١.

(٢) مضمار الحقائق، ص٧٢.

(٣) السلوك، ج١، ص٧٤.

(٤) ابن الأثير، الكامل، م٩، ص١١٩؛ رحلة التجاني، ص١١١- ١١٣؛ ابن خلدون، العبر، م٦، ص٢٢٧؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، وهو العصر الثالث من كتاب دولة الإسلام في الأندلس، القسم الثالث، عصر الموحدين وانهيار الأندلس، الطبعة الأولى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٤م، ص١٥٦.

(٥) ابن المظفر، مضمار الحقائق وسر الخلائق، حماة، تحقيق حسن حبشي، عالم الكتب القاهرة ١٩٦٨م. ص٧٥.

لقد كان كل من قراقوش وابن غانية بحاجة لإضفاء الشرعية على ما يقومون به من غزو فكانا يتستران بأنهم يؤمنان بشرعية الخلافة العباسية وينكران شرعية الخلافة الموحدية، لكن الحقيقة بالطبع أن الطمع في الحكم هو المحرك الأساسي لهم لا إيمان بالخلافة ولا غيره.

(٦) قابس قال عنها البكري: مدينة جليلة مسور بالصخر من بنيان الأول ذات حصن حصين وارباض وأسواق وفنادق وجامع وحمامات كثيرة وقد أحاط بها خندق كبير ولها ثلاثة أبواب وبشرقيها وقبليها أرباض ويسكنها العرب والأفارقة وساحل مدينة قابس مرفأ للسفن من كل مكان وحوالي قابس قبائل من البربر ولمايه ولواته ونفوسه

ذخائره، وسار ابن غانية إلى توزر[١]. ففتحها بمساعدة قراقوش[٢]. ثم تقرر أن ما فتح من البلاد هو مناصفة بين ابن غانية وقراقوش[٣].

وهكذا أحس ابن غانية أن حلمه في إعادة ملك المرابطين قد تحقق فأرسل ولده عبد المؤمن إلى الخليفة العباسي الناصر بن المستضيء[٤]. ببغداد يطلب منه خطاب السلطنة[٥]. ليستكمل بذلك شرعية حروبه، فعقد له الخليفة العباسي على ما كان للمرابطين من قبل، وأرسل إلى صلاح الدين الأيوبي يطلب منه مساعدته، فأرسل صلاح الدين الأيوبي إلى تابعه قراقوش يطلب منه التحالف مع ابن غانية وإقامة الدعوة العباسية[٦]، فكان هذا مما عزز الحلف بينهما.

حملة المنصور علي ابن غانية:

أقلقت المنصور الأنباء الواردة إلى مراكش عن تحالف الميورقي مع قراقوش وسقوط أغلب المدن الهامة في يديهما كقفصه، وقابس، وتوزر ونفطه[٧]. فلم يبق في أيدي الموحدين من المدن الهامة سوى تونس والمهدية[٨]، فقرر المنصور أن يسير حملة برية يقودها هو بنفسه هذه المرة.

ومزاته وزواوه. البكري، المصدر السابق، ص١٨ وما بعدها؛ لمزيد من التفاصيل، راجع الإدريسي، نزهة المشتاق، م١، ص٢٧٩- ٢٨٠؛ وانظر التجاني، ص٨٧- ٨٨.

(١) توزر قال عنها الإدريسي: ولها سور حصين وبها نخل كثير جدا وتمرها كثير يعم بلاد إفريقية وبها الأترج الكبير الحسن الطيب وأكثر الفواكه التي بها في حال معتدلة وبقولها كثيرة موجودة متناهية في الكثرة والجودة وماؤها غير طيب ولا مر وسعر الطعام بها في أكثر الأوقات غال لأنه يجلب إليها وزروع الحنطة والشعير بها قليل يسير. الإدريسي، المصدر السابق، ص٢٧٧.

(٢) التجاني، المصدر السابق، ص١٠٣؛ ابن خلدون، العبر، م٦، ص٢٢٨؛ وانظر، ابن الأثير الكامل، م٩، ص١١٩.

(٣) ابن خلدون، العبر، م٦، نفس المصدر، ص٢٢٩.

(٤) الحسن بن المستنجد بالله المستضيء بأمر الله ٥٦٦/ ٥٧٥هـ ١١٧٩- ١٢٢٥م ولد سنة ٥٣٦هـ/ ١١٤١م واظهر في أيامه العدل والكرم وفي عهده سقطت الدولة العبيدية بمصر علي صلاح الدين الأيوبي ودعى له فيها ووصلت دعوته حتى إفريقية على يد بن غانية وكانت قد انقطعت على يد الموحدين. جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمود رياض الحلبي، دار المعرفة، الطبعة الثالثة، بيروت- لبنان، ١٩٩٧.

(٥) خطاب السلطنة هو كتاب يرسله الخليفة العباسي مع الراية العباسية السوداء إلى حاكم منطقة معينة ليصبح بذلك حاكما شرعيا من الناحية الفقهية، وقد كان الخلفاء العباسيين الأوائل أقوياء، يعينون هذا الحاكم متى شاءوا يعزلونه متى شاءوا، لكن بعد ضعف الخلفاء أصبحت سلطتهم روحية لا أكثر فيرسلون خطاب التولية بقبوله واليا على تلك المنطقة لكنهم من الناحية الفعلية لا يستطيعون عزله أو حتى التدخل في تسيير شؤون تلك المنطقة. حسن إبراهيم حسن، النظم الإسلامية القاهرة المكتبة، الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٦٢ ص٢٤؛ خضري بك، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية العباسية، دار المعرفة، بيروت لبنان، الطبعة السادسة، ٢٠٠٠م ص٧٤.

(٦) ابن خلدون، المصدر السابق، م٦، ص٢٢٨.

(٧) نفطة قال عنها الإدريسي: بينها وبين قفصة مرحلتان صغيرتان وهي مدينة متحضرة عامرة بأهلها لها أسواق وتجارات ونخل وغلات ومياه جارية. الإدريسي، المصدر السابق، م١، ص٢٧٨؛ الحميري، الروض المعطار، ص٥٧٨.

(٨) المهدية، من معاقل المغرب المنيعة لأن بنيانها في غاية الإحكام والوثاقة، بلغني أن عرض حائط سورها ممشا ستة أفراس في صف واحد، ولا طريق لها من البر إلا على باب واحد، والبحر في قبضة من في البلد يدخل الشيني كما هو بمقاتلته إلى داخل دار الصناعة، لا يقدر أحد ممن في البر على منعه. المراكشي، المعجب، ص٢٢٩؛ رحلة التجاني، ص٣٤٧؛ ابن حوقل، صورة الأرض ص٧٣؛ الإديسي، نفس المصدر، م١، ص٢٨١- ٢٨٣؛ الحميري، الروض المعطار، ص٥٦١- ٥٦٢؛ أماري، المكتبة العربية الصقلية، ص٣١٩- ٣٢٤.

وكان مما استنفر المنصور أكثر، هو أخبار العيث والفساد الذي استشرى في كل مكان على أيدي الأعراب؛ ففي مجال التنافس على كسب ود الأعراب أطلق ابن غانية وقراقوش أيدي الأعراب في النهب والسلب كم يحلوا لهم، ومما يذكره التجاني في هذا المجال أن ابن غانية سار إلى جزيرة باشو(١)، بالقرب من تونس سنة ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م فسأله أهلها الأمان فمنحهم إياه، ولكنه ما كاد يدخل المدينة حتى نهبوا سائر ما فيها، وامتدت أيدي الأعراب إلى البنات وهتكوا الحرمات، ففر من استطاع منهم إلى تونس ونزلوا بين أسوارها، فداهمهم برد الشتاء فقتل منهم اثنا عشر ألفا(٢). مع أن هذا الرقم يحمل الكثير من المبالغة.

وبدأ المنصور حملته، افستنفر القبائل من كل مكان، ثم رجع إلى مراكش وبقي بها إلى عيد الفطر، حيث تحرك في ٣ شوال ٥٨٢هـ/ ١٨ ديسمبر ١١٨٦م(٣). بجيش قوامه عشرين ألفاً من خيرة المقاتلين(٤) وقصد قلة عدد الجند نظراً لقلة المؤن بأفريقية نتيجة لما حل بها من الخراب(٥)، ولسرعة التنقل خصوصاً أنه يدرك مدى قوة عدوه وخفة حركته كما أرسل المنصور إلى الولاة بإصلاح الطرقات وإعداد الأعلاف. وابتدأ الجيش مسيره أولاً إلى الرباط حيث التقى يعقوب المنصور بولاة الأندلس والمغرب، وأعطى لهم التعليمات حول سير الأمور أثناء غيابه، ثم سار إلى فاس فأقام هناك إلى أن انتهى الشتاء(٦).

ومما يلاحظ أن المنصور أعرض عن اصطحاب العرب في جيشه هذه المرة إلا بعضاً من أشياخ بني زيان لثقتهم به(٧) أما البقية فقد علمته الأحداث أنهم ليسوا أهلا للثقة، خصوصاً وأن غدرهم بوالي بجاية لا يزال ماثلاً في الأذهان، كما أن أكثر جند قراقوش وبني غانية من الأعراب، فخشي أنه عندما تعض الحرب بنابها يميل الأعراب إلى إخوانهم، كما أن الأعراب عموماً في حربهم أهل كر وفر وعبر تاريخهم الطويل في المغرب قلما صمدوا في المعارك(٨).

أما علي بن غانية فإنه لما بلغته أخبار قدوم المنصور إليه، سار إلى تونس وحاصرها ابتغاء الاستيلاء عليها وحرمان الموحدين من أي قاعدة في إفريقية يحطون فيها رحالهم غير أنه فشل(٩). ولما وصل الخليفة إلى قسنطينة أخذ ابن غانية يعد العدة للحرب وبدء في جمع جيشه من عرب وميارقة وأغزاز (قراقوش وأتباعه) وبربر قرب القيروان، وكان من رأي الخليفة الموحدي أن يبادر فوراً إلى لقاء ابن غانية قبل أن يكمل استعداداته، غير أن شيوخ الموحدين أشاروا عليه بالسير أولا إلى تونس

---

(١) باشو قال عنها الإدريسي: "وهي أرض مباركة وطيبة ذات شجر زيتون وعمارت متصلات وبركات وخيرات وغلات ومياه ليست بكثيرة الجري على وجه الأرض لكنها ممكنة مياه الآبار وفيها بالجملة خصب زائد وهذه الجزيرة إقليم لها مدينة باشو ولم يبق الآن منها إلا مكانها". الإدريسي، نفس المصدر، م١، ص٢٩٣؛ الحميري، الروض المعطار، ص٧٦؛ مضمار الحقائق، ص٢٠٣.

(٢) رحلة التجاني، المصدر السابق، ص٤١٤؛ وابن الأثير، الكامل، م٩، ص١٧١.

(٣) ابن عذاري، نفس المصدر، القسم الموحدي، ص١٨٦.

(٤) محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، القسم الثاني، ص١٥٩.

(٥) ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص١٨٦؛ ابن الأثير، م٩، ص١٧١.

(٦) ابن عذاري، المصدر السابق، القسم الموحدي، ص١٨٦.

(٧) نفس المصدر، القسم الموحدي، ص١٨٦.

(٨) نفس المصدر، القسم الموحدي، ص١٨٦.

(9)Miranda (A), Historia Politica del Imperio Almohade, vol. I, o. 332.

ليرتاح الجيش من وعثاء السفر، فمال المنصور إلى رأيهم وسار الجيش الموحدي إلى تونس حيث وصلوا في صفر ٥٨٣هـ/ مارس ١١٨٧م[١].

١- معركة عُمرة:

جهز المنصور جيشاً قوامه ستة آلاف جندي وجعل عليه يعقوب بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن، ومعه عمر بن أبي زيد وعلي بن الربرتير[٢]، غير أن هذا الجيش بدء يعاني منذ الوهلة الأولى من الانقسام؛ إذ يروي ابن عذاري أن الجيش وصل إلى ميدان المعركة متعبا وأنه لما تراءت الفئتان تشتت الآراء وكثر التواكل والالتواء[٣]، فما إن تقدم الجناح الذي يقوده علي بن الربرتير إلى الهجوم حتى أمطرته سهام العرب فمزقته تمزيقا، أما أبو علي بن يومور فقد خذلته العرب كعادتها المأثورة في أي لقاء، على الرغم من أنهم يفترض أن يكونوا من المصطفين الأخيار!...

وهوجم الجيش الموحدي من كل النواحي وشد قراقوش وابن غانية على الجيش الموحدي شدة واحدة فتشتت فلوله ومزقت تمزيقا وسقط الربرتير وتفرق صحبه أسيراً، وكذلك ابن يومور[٤] واتبعت العرب والبربر جيش الموحدين يقتلونهم في كل مكان ومن نجا من سيوف بني غانية أهلكه العطش في الصحراء[٥]. وقد دارت هذه المعركة في مكان يعرف بعمرة[٦] في ١٥ ربيع الأول سنة ٥٨٣هـ/ ٢٥ مايو ١١٨٧م[٧]، في حين يروي ابن عذاري أنها وقعت منتصف ربيع الآخرة من نفس السنة/ ٩ يوليو ١١٨٧م[٨].

وكان الكثير من الجرحى والناجين من الجيش الموحدي قد لجأ إلى قفصة وغصت بهم السكك، فأظهر لهم ابن غانية الأمان ودعاهم إليه، حتى إذا اجتمعوا قتلهم أجمعين[٩]. وكان من الذين قتلوا علي بن الربرتير؛ فقد سقط في الأسر فحاول أن يعيد كرة ميورقة فيرشوا الحراس الموكلين به ليطلقوا سراحه، لكن آسريه أخذوا الرشوة منه وغدروا به وسلموه لابن غانية، الذي جازاهم بدوره مالا كثيراً. فلما قبض ابن غانية على ابن الربرتير عذبه عذاباً شديداً ثم قتله انتقاما مما فعله بحريمه عندما كان في ميورقة. وقتل ابن غانية أيضاً علي بن يومور وعلق رأسه على باب قفصة[١٠]، فكانت بذلك هزيمة مضاعفة على الموحدين لم يعرفوا مثلها منذ زمن.

---

(١) عنان، نفسه، ص١٦٠؛ جوليان، تاريخ أفريقية الشمالية، ج٢، ص١٣٩؛ ابن خلدون، العبر، ٦، ص٢٧٩؛
Huici Miranda (A), Historia Politica del Imperio Almohade, vol. I, p. 333.

(٢) ابن خلدون، المصدر السابق، م٦، ص٢٢٨.

(٣) ابن عذاري، نفس المصدر، القسم الموحدي، ص١٨٨.

(٤) المصدر السابق، القسم الموحدي، ص١٨٨.

(٥) المراكشي، المصدر السابق، ص٢٧٣.

(٦) عمره: فحص بأحواز قفصة من بلاد الجريد في أفريقية، الحميري، الروض المعطار، ص٤١٤- ٤١٥؛ التجاني، ص١٦٢؛ المراكشي، المصدر السابق، ص١٦٢؛ ابن خلدون، العبر، م٦، ص٢٨٩.

(٧) المراكشي، نفس المصدر، ص٢٧٣.

(٨) ابن عذاري، نفس المصدر، القسم الموحدي، ص١٨٨.

(٩) نفس المصدر، القسم الموحدي، ص١٨٨.

(١٠) نفس المصدر، القسم الموحدي، ص١٨٩؛ الحميري، الروض المعطار، ص٤١٤؛

٢- معركة الحمة:

رجع من حالفه الحظ ونجا إلى تونس وبلغوا الخبر للخليفة[١]، فساءه الأمر وتكدرت نفسه[٢]، وقرر أن يقود المعركة التالية بنفسه هذه المرة بعد أن رأى من سوء مشورة أشياخ الموحدين وما جلبته من هزيمة. فأخذ يشحذ عزيمة جنده ويحث الناس على تجديد نياتهم، وعاقب كل من أظهر القعود عن الحرب[٣]، وجاءته الوفود المتطوعة من كل مكان، فقد كان الناس يخشون أن يهزم المنصور فيعود عيث ابن غانية من جديد.

وهكذا خارج المنصور من تونس في ٣٠ رجب ٥٨٣هـ/ ٥ سبتمبر ١١٨٧م[٤]، فسار أولا إلى رادس[٥]، حتى يكتمل اجتماع الجيش[٦]، ثم سار بمحاذاة الساحل ليمنع عن ابن غانية أي تمويل يمكن أن يأتيه من أخيه عبد الله من ميورقة[٧]. وعندما مر المنصور بالقيروان أرسل كتاباً إلى ابن غانية ينذره فيه بوجوب الدخول في الطاعة، فاعتقل ابن غانية الرسول ولم يجبه بشيء ولكنه أخذ يستعد للمعركة الحاسمة[٨].

وسار الموحدون جنوباً حتى وصلوا إلى قابس، ولما أصبحوا على بعد فرسخين من الحمة[٩]، سرح المنصور سرية إلى منازل العرب المتحالفين مع ابن غانية، فاكتسحوا ديارهم ونكلوا بهم عقاباً لهم وتخويفاً لكل الضالعين مع ابن غانية[١٠]، ثم نزل بالجيش في الحمة وطلائع العدو تظهر من حين لآخر، فقرر المنصور التعجيل بالحرب من الغد وأن يقود المعركة بنفسه[١١]، تلافياً لأخطاء معركة عمرة. حتى أن بعض الوزراء حاولوا ثنيه عن قيادة المعركة بنفسه إلا أن المنصور زجرهم وأبى إلا أن يمضي برأيه. فرتب المنصور القبائل في مواضعها وقدم عليها قرابته من الأشياخ والأشداء من رجاله واستعد للقاء الحاسم. أما ابن غانية فقد عسكر في موضع حصين بالقرب من الحمة[١٢].

Miranda (A), Historia Politica del Imperio Almohade, vol. I, p. 334.

(١) المراكشي، نفس المصدر، ص٢٧٣.

(٢) ابن عذاري، نفس المصدر، القسم الموحدي، ص١٩٠.

(٣) الصفاقسي محمود بن سعيد مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت لبنان، ١٩٨٨م، ص٥٠٢؛ وانظر: المراكشي المعجب، ص٢٧٣؛ ابن خلدون، العبر، م٦، ص٢٨٩.

(٤) ابن الأثير، المصدر السابق، م٩، ص١٧١.

(٥) يذكر البكري أن رادس هو بحر مدينة تونس. البكري، المصدر السابق، ص٣٧.

(٦) عبد الله المطوي السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٦م، ص٣٣.

(٧) نفس المرجع، ص٣٣.

(٨) رسائل موحدية، الرسالة الثلاثون، ص١٨٠ وما بعدها.

(٩) الحمة قال عنها الإدريسي: جنوب شرق مدينة توزر مائها ليس بطيب لكنه شروب قنع به أهلها، وبها نخل كثير وتمر غزير ومنها إلى نقيوس ٢٠ ميلا. الإدريسي، المصدر السابق، م١، ص٢٧٧.

(١٠) محمود مقديش، المصدر السابق، ص٥٠٢.

(١١) ابن عذاري، المصدر السابق، القسم الموحدي، ص١٩٠.

(١٢) نفس المصدر، قسم الموحدين، ص١٩١.

وهكذا تراءت الفئتان في الصباح الباكر في يوم قد حجب الضباب فيه الرؤيا، وسرح المنصور بعض قواته إلى معسكر العرب في جيش ابن غانية فبددوا شملهم(١). مما أربك ابن غانية وحلفائه؛ فقد أدرك المنصور بدهائه أن العرب الذين خذلوه في معركة عمرة وركنوا إلى الفرار، قد يخذلون ابن غانية أيضاً، ثم أرسل المنصور كل قواته إلى الميارقة والأتراك (أتباع قراقوش)، وبدأ حينئذ سير المعركة الحقيقة، ودارت الدائرة في النهاية على ابن غانية وحلفائه الترك ومزق الموحدون صفوفهم، وأبادوا معظمهم بالقتل(٢)، أما ابن غانية وقراقوش فقد أدركا أنهما يخوضان معركة حاسمة في ظروف قاتمة ففرا إلى توزر، فلاحقهما الموحدون ففرا إلى الصحراء(٣)، فعدل الموحدون عن ملاحقتهم(٤) وكان تاريخ هذه المعركة في ٩ شعبان ٥٨٣هـ/ ١٥ أكتوبر ١١٨٧م(٥).

وقد اختلف المؤرخون حول مصير علي بن غانية بعد هذه المعركة. ففي حين يذكر المراكشي أن علي بن غانية فر من معركة الحمة مثخنا بالجراح، فلجأ إلى خيمة عجوز أعرابية في الصحراء ومات عندها(٦)، يذكر ابن خلدون أن علي بن غانية أصابه سهم غرب (مجهول المصدر) في بعض حروبه مع أهل نفزاوة سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م كان فيه هلاكه فدفن هناك وعفي قبره وحمل شلوه (جثته) إلى ميورقة فدفن بها(٧)، وهو ما يذهب إليه التجاني تقريباً إذ يذكر أنه بعد فرار علي ابن غانية من معركة الحمة إلى الصحراء أصيب بسهم في ترقوته فمات(٨). ولا منافاة بين رأي ابن خلدون والتجاني إذ أنه يحتمل أنه بعد فراره من توزر دخل في حرب مع نفزاوة فأصابه سهم ومات.

أما المنصور فسعى للاستفادة من نصره المبين فسار تواً إلى قابس، وكان قراقوش قد جعل فيها أهله وبنوه وخيرة أتباعه فحاصرها، وحاول أتباعه التحصن بقصبة المدينة(٩)، غير أن الموحدين ضيقوا عليهم الحصار من كل مكان، فعرضوا الاستسلام مقابل الأمان، غير أن المنصور أمنهم على أرواحهم فقط، فلما سلموا استصفى المنصور أموالهم وبعث بهم رقيقا إلى مراكش(١٠). ثم سار المنصور لاسترجاع بقية المدن التي استولى عليها ابن غانية، فاسترجع نفزاوة(١١)، وقسطيلية وتوزر وتقيوس

---

(١) محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، القسم الثاني، ص١٦٢.

(٢) ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص١٩١؛ ابن الأثير، المصدر السابق، م٩، ١٧١.

(٣) المقصود بالصحراء هي منطقة العرق الشرقي الكبير الآن التي هي عبارة عن بحر من الرمال فكان ابن غانية يلجأ إليها فيصعب على الجيوش الموحدية الكبير مطاردته في هذه الصحراء الخالية.

(٤) التجاني، المصدر السابق ص١٣٤- ١٣٥؛ المراكشي، المصدر السابق، ص١٩٤. محمد السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الجيب الهيله، دار الغرب الإسلامي، بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٥ الجزء٢، ص٣٩٧؛ وابن عذاري، نفس المصدر، القسم الموحدي، ص١٩١؛ حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل، بيروت لبنان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠، الجزء ٤، ص٤٢٠.

(٥) رسائل موحدية، الرسالة الثلاثون، ص١٨٩.

Miranda (A), Historia Politica del Imperio Almohade, vol. I, p. 335.

(٦) المراكشي، المصدر السابق، ص٢٧٣.

(٧) ابن خلدون، المصدر السابق، م٦، ص٢٢٩.

(٨) التجاني، ص١٦٢. المراكشي؛ المصدر السابق، ص١٦٢.

(٩) ويذكر التجاني أنهم تحصنوا بقصر العروسين في قابس، التجاني، نفس المصدر، ص١٠٣ وما بعدها.

(١٠) رسائل موحدية، الرسالة الثلاثون، ص١٩٠؛ الحميري، الروض المعطار، ص٤١٤- ٤١٥.

(١١) نفزاوة قال عنها البكري: من القيروان إلى نفزاوة ستة أيام نحو الغرب... ولمدين نفزاوة سور صخر وطوب ولها ستة أبواب، وبها جامع وأسواق حافلة وهي على نهر كثير النخل والثمار وحواليها عيون كثيرة. البكري، المصدر السابق، ص٤٧؛ الحميري، الروض المعطار، ص٥٧٨؛ ياقوت، معجم البلدان، م٥، ص٢٩٦.

والحمة ونفطه. وثار أهالي المدن المحتلة على من كان عندهم من الاغزاز والميارقة وأعوانهم، فكان كلما دخل الموحدون إلى بلدة إلا وسلم لهم أهلها جملة من هؤلاء ليقتلوهم، ففر الكثير منهم إلى توزر فلما سمعوا بمقدم الموحدين إليهم فروا إلى الصحراء في جنح الظلام(١).

٣- معركة قفصة:

كانت قفصة مدينة منيعة لجأ إليها الكثير من أتباع قراقوش وابن غانية معتمدين على حصانتها، لكن المنصور اعتبر دخول هذا البلد تتويجا لباقي انتصاراته، وأنه إن لم يستول عليها ألغى ذلك كل ما حققه من الانتصارات، خصوصاً أن أهلها فتحوا أبواب مدينتهم لابن غانية، فكانت مسرحاً لمجزرة ابن غانية الشنيعة ضد الجيش الموحدي، لذلك تعمد ترك هذه المدينة، آخر مدينة يفتحها حتى يتفرغ لها ويقطع عنها الإمدادات من المدن الأخرى(٢)، واستعد لذلك جيداً فلم يبدأ هجومه إلا بعد استكمال قدوم كل قواته.

وقبل بداية هجومه على قفصة وصل إلى المنصور كتابين: أحدهما من قراقوش، والثاني من أبي زيان زعيم الغز؛ الذي كان تابعاً لقراقوش ولكنه تمرد عليه واستقل بطرابلس(٣). أعلنا كلاهما فيه التوبة والدخول في الطاعة. ولكن سنرى فيما بعد أن هذه التوبة كانت مكذوبة، خاصة بالنسبة لقراقوش؛ الذي حتم عليه أسر المنصور لحريمه وخيرة رجالة في قابس، واستعداده للقضاء على من بقي منهم في قفصة أن يظهر هذه التوبة المزعومة، وسنرى كيف أنه سيقلب ظهر المجن للموحدين في أول فرصة يحس فيها أنه غني عن هذه التوبة. أما أبا زيان فقد يكون الدافع لتوبتة خوفه أن تكون بلده طرابلس هي ضحية الموحدين التالية بعد قفصة.

وما إن اكتملت عدة الجيش الموحدي حتى سار المنصور إلى قفصة. وبدء بقطع كل النخل المحيط بالمدينة ترويعا للمتحصنين، ثم أحاط قفصة بالمنجيقات من كل مكان وأخذ يدك أسوارها دكا، وكانت قفصة في مرتفع من الأرض محاطة بحفير من كل الجهات، فبنى الموحدون مبنى من سبعة طوابق يشرف على المدينة من الداخل، ودكت أسوارها حتى خرقت سور المدينة، ونجح الموحدون في ردم جهة الحفير المواجهة لثغر السور، ولكنهم لما حاولوا الدخول منه إلى المدينة واجههم أهلها بوابل من الحجارة مستفيدين من علو موقعهم وانخفاض موقع الموحدين(٤)، فارتد الموحدون خائبين، لكن المنصور عزم على معاودة الهجوم من الغد(٥).

---

(١) رسائل موحدية، الرسالة الواحدة وثلاثون، ص١٩٦.

(٢) المطوي، المرجع السابق، ص٣٧.

(٣) رسائل موحدية، الرسالة الواحدة وثلاثون، ص١٩٨.

(٤) ابن عذاري، القسم الموحدي، ص١٩٤؛ ابن الأثير، الكامل، م٩، ص١٧١؛ وانظر، رحلة التجاني، ص١٣٩، ١٣٨.

(٥) محمود مقيدش، المصدر السابق، ص٢٧. الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف أفريقية، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٩٨٣. الجزء ٢، ص١٧٤.

غير أن الأهلي لما رأوا فداحة الخسائر التي حلت بهم خشوا عاقبة دخول المنصور إلى البلاد عنوة فخرج أعيانهم ليلا إلى المنصور يطلبون الأمان، وتم الاتفاق على إعطاء أهالي المدينة الأمان، وأن أملاكهم بيدهم على حكم المساقاة(١)، واندرج هذا التأمين على الاغزاز وجميع أهل قفصة وكافة من كان معهم من قبائلهم وأهل باديتهم، واستثنى منهم الميارقة والغرباء(٢). ونستطيع القول أن المنصور عفى عن الاغزاز الذين هم من أتباع قراقوش فقط، بدليل أن من الذين قتلوا إبراهيم بن قراتكين مع أنه من الأغزاز أيضا، وذلك بسبب كتاب قراقوش.

ولما كان الغد خرج الناس من المدينة فلم يبق إلا النساء والأطفال، ثم ميز الناس، فخلوا سبيل أهل البلد، وقيدوا الباقين قرب البرج المشيد (البرج ذو السبع طوابق). وبعد صلاة الظهر جلس المنصور على برج يسمى الديبان(٣)، وأمر بإخراج المقيدين وبذبحهم جميعا، وأول من ذبح على بن غانية ثم اتبع بالباقين، وألقوا بجثثهم في حفير والخليفة يشاهد ما يحدث من الديبان، وكان من الذين ذبحوا أيضا إبراهيم بن قراتكين. كما أمر الخليفة الأهالي بهدم السور حتى لا يفكر أي خارج بالتحصن به مرة أخرى، فهدمه الأهالي في يومين(٤).

أما عن تاريخ هذه الغزوة، فإن رسالة يعقوب المنصور التي وجهها من قفصة إلى الطلبة والأشياخ بمراكش يخبرهم بفتح قفصة مؤرخة في ١٣ ذي القعدة سنة ٥٨٣هـ(٥). لذا يرجح أن يكون الاستيلاء على قفصة في أوائل ذي القعدة سنة ٥٨٣هـ يناير ١١٨٧م(٦).

وقد كانت هذه المعركة نكبة لبني غانية حتى أنهم لاذوا بالسكينة زمنا، ولم يبدءوا أعمال العيث من جديد حتى وفاة المنصور وتولى ابنه الناصر الحكم كما سنرى.

وبعد الانتهاء من أمر بلاد الجريد، سار المنصور إلى تونس حيث دخلها في العشرة الأخيرة من شوال ٥٨٣هـ/ ديسمبر ١١٨٧م. فبقي المنصور مدة يصلح من حال إفريقية وتونس، ثم ولى أخوه السيد أبي زيد على ولاية إفريقية، وسار إلى المهدية وقد عزم الرجوع إلى الحضرة المراكشية في المحرم سنة ٥٨٤هـ/ مارس ١١٨٨م(٧).

سفارة صلاح الدين: ما كان الخليفة الموحدي أبو يوسف يعقوب المنصور يستقر في مراكش، بعد أن وطد سلطان الموحدين بإفريقية، حتى أخذ ينظر في شئون الأندلس لصد عدوان البرتغاليين والقشتاليين على قواعد الأندلس، ويعد العدة في

---

(١) المساقاة: أن يدفع الرجل شجره إلى آخر ليقوم بسقيه وعمل سائر ما يحتاج إليه بجزء معلوم من ثمره. معجم لغة الفقهاء محمد رواس قلعجي حامد وحامد صادق قنيبي، دار النفائس، الطبعة الثانية، بيروت لبنان، ١٩٨٨، ص٤٢٥. والمقصود بها هنا أنهم يستعملون أملاكهم ولكن لا يملكونها.

(٢) رسائل موحدية، الرسالة الثانية والثلاثون، ص٢٠٦ وما بعدها؛ التجاني، المصدر السابق، ص١٣٨.

(٣) الديبان: اختراع نقله المسلمون عن البزنطيين وهو أشبه شيء ببرج عالي يقف فيه الحاكم أو قائد المعركة من بعيد ليشرف على مجريات الأحداث.
Miranda (A), Historia Politica del Imperio Almohade, vol. I, p. 336.

(٤) ابن عذاري، المصدر السابق، ص١٩٦. التجاني، المصدر السابق، ص١٤٠. رسائل الموحدية، الرسالة الثانية والثلاثون، ص٢٠٦. وما بعدها والمراكشي، المصدر السابق، ص١٣٩؛ ابن الأثير، الكامل، م٩، ص١٧٢.

(٥) رسائل موحدية، الرسالة الثانية والثلاثون، ص٢١٠.
Miranda (A), Historia Politica del Imperio Almohade, vol. I, p. 337.

(٦) ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص٩٦، ١٩٧؛ عنان، المرجع السابق، القسم الثاني، عصر الموحدين، ص١٦٥.

(٧) ابن خلدون، العبر، م٦، ص٢٨٩؛ نفس المرجع، القسم الثاني، ص١٦٦.

سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م لمواجهة أساطيل الصليبيين الضخمة التي توجهت إلى مياه جليقية في شمال الأندلس، كما توجهت أساطيل صليبية أخرى نحو مياه أشبونة، استخدمها ملك البرتغال ألفونسو هنريكز لغزو مدينة شلب حتى نجح في الاستيلاء عليها، وعاث الصليبيون في أشبيلية، فأعد الخليفة يعقوب الأساطيل وحشد القوات في المحرم سنة ٥٨٦هـ/ مارس ١١٩٠م لرد عدوان النصارى على الأندلس(١).

وفي هذا العام تلقى الخليفة الموحدي سفارة هامة من صلاح الدين الأيوبي سلطان مصر والشام، على يد وزيره عبد الرحمن بن منقذ، في وقت كان الشرق الإسلامي يواجه منذ القرن الخامس الهجري/ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي عدوان الغرب المسيحي في صورة حملات صليبية متوالية على بلاد الشام وبين المقدس، وأقامت مملكة لاتينية في بيت المقدس أواخر العصر الفاطمي، حيث استطاعت مصر على يد صلاح الدين الأيوبي أن تسترد بين المقدس سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م. فهرع الغرب في حشود هائلة مرة أخرى إلى الشرق، ليقضي على القوة الجديدة، المتمثلة في الأيوبيين– التي تهدد أطماعه(٢).

كان صلاح الدين رغم قوة دولته الناشئة وما أحرزه من انتصارات، يشعر بمدى الخطر الذي يمثله التكتل الصليبي الجديد، ويخشى من تكالب قوى الصليبيين عليه، ونتيجة لهذه الظروف اتجه ببصره نحو المغرب يستمده ويطلب منه العون والنجدة. فقد كان على دراية بما بلغته الدولة الموحدية من القوة والعظمة والمجد. فكتب صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة الموحدي– يعقوب المنصور– سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م يستنصر به لقتال وصد حشود أساطيل جيوش الفرنجة الزاحفة يومئذ على مصر والشام. ويصف له جهوده في محاربة الصليبيين وهزيمتهم، طالبا من الخليفة الموحدي أن يمد الشام بشطر من أساطيله المنصورة(٣)، وأن يرسل في الوقت نفسه جزءا من أسطوله إلى صقلية، ليعيق حاكمها عن الاشتراك مع زملائه الملوك النصارى في مهاجمة مصر وقد كان ملك صقلية في هذا الوقت يهاب ويخاف من القوة العسكرية للموحدين "وأرسل إليه الأتاوة وهادنه على أن يحمل إليه كل سنة مال اتفق عليه"(٤).

ويبدو أن صلاح الدين لم يكن على دراية تامة بحقيقة سير الأمور بالمغرب والأندلس في تلك الفترة، حيث كان الخليفة يعقوب المنصور يواجه أخطار وصعاب سواء في المغرب أو الأندلس. ففي المغرب انشغل الخليفة بثورة بني غانية واعتدائهم على إفريقية، وتحالفهم مع شرف الدين قراقوش وجنده الترك، ومن انضم إليهم من القبائل العربية. أما في الأندلس عمل على حشد الجيوش والأساطيل لمواجهة عدوان قشتالة ومملكة البرتغال. لهذا كان من الطبيعي في تلك الظروف الصعبة التي يجوزها الموحدون في المغرب والأندلس. أنا رسالة الاستنجاد التي أرسلها صلاح الدين إلى الخليفة الموحدي لم تلق القبول المتوقع والأثر المرغوب في مثل تلك الظروف الصعبة.

---

(1)Miranda (A), Historia Politica del Imperio Almohade, vol. I, p. 341- 342.

(2)Miranda (A), Opcit., vol. I, p. 353- 354.

(٣) كان صلاح الدين يعلم أن الموحدين يملكون أسطولا قويا منذ عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن يقول ابن أبي زرع عن يوسف "واقتنى الذخائر، واستكثر من الجيوش والجنود، ومهد البلاد، وطاع له من بالعدوتين من العباد، وضخم الملك... وكثرت الأموال في أيامه". روض القرطاس، ص٢٠٦.

(٤) المعجب، ص٢٥٢.

يذكر ابن عذاري صاحب كتاب البيان المغرب تحركات السفير المصري ابن منقذ ووصوله إلى المغرب، ونزوله بثغر تونس، ثم توجه إلى بجاية حيث استقبله السيد أبو زيد والي إفريقية والسيد أبو الحسن والي بجاية بمنتهى الحفاوة والإكرام، وكتبا إلى المنصور وهو يومئذ بإشبيلية بمقدم السفير. فأمر الخليفة بإكرامه وأن يستقر بمدينة فاس ويكتم أمر الرسالة حتى يستقبله(١). ولبث ابن منقذ بفاس زهاء عام ينتظر لقاء الخليفة الذي كان منشغلا بالجهاد في الأندلس. وعندما عاد إلى المغرب في رمضان سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م، استقبل ابن منقذ في مراكش استلم هدية صلاح الدين، وأفضى إليه ابن منقذ بضمون سفارته، والرسالة التي يحملها(٢).

إلا أنه لم يكن لتلك السفارة نتائج عملية، حيث يذكر ابن خلدون أن الخليفة اعتذر عن إعارة الأسطول(٣)، وأحيل ابن منقذ إلى الوزراء لاستكمال التفاصيل، ثم غادر مراكش في العاشر من المحرم سنة ٥٨٨هـ/ يناير ١١٩٢م وهو يحمل من الخليفة الموحدي إلى السلطان صلاح الدين هدية تضارع هديته في القيمة والفخامة(٤). وتذكر بعض الروايات أن الخليفة المنصور لم يستجب إلى صريخ صلاح الدين، لأنه لم يلقبه في رسالته بألقاب الخلافة(٥). وهي رواية لا تتناسب مع الظروف والأحداث التي كان يواجهها العالم الإسلامي مشرقه ومغربه في تلك الفترة. فبالرغم من قوة الأساطيل الموحدية والانتصارات التي حققها الموحدون إلا أن خطر عدوان نصارى الأندلس، كان متوقع الحدوث والتكرار. ومن ثم لم يك ثمة إزاء تلك الظروف والأخطاء كلها، فيما يبدو مجال لأن يقدم الخليفة الموحدي الغوث لأخوانه المشارقة، في وقت هو أقرب فيه لأخطار عدوان النصارى. ومع هذا يكفي الخليفة الموحدي أن وجود أساطيله الضخمة غرب البحر المتوسط منع جزء من أساطيل الفرنجة أن يمر من مضيق جبل طارق، وامتص بعض هجمات الصليبيين التي كان من الممكن أن تعبر المضيق في طريقها إلى البحر المتوسط لقتال المسلمين في مصر والشام.

كما يبدو أن أعمال قراقوش التي فصلناها من قبل، رغم عدم وجود العلاقة المباشرة بين صلاح الدين وقراقوش أحفظت صدور الموحدين على الأيوبيين، وكان الأيوبيون يعلمون ذلك، فصلاح الدين الذي يذكر لابن منقذ أمر ذلك ويعلمه الرد إن سئل إذ يقول: "وإن سئل عن المملوكين يوزبا وقراقوش، وذكر ما فعلا بأطراف المغرب بمن معهما بنفايات الرجال الذين نفتهم مقامات القتال، فيعلمهم أن المملوكين ومن معهما ليسوا من وجوه المماليك والأمراء، ولا المعدودين من في الطياشية والأولياء، وإنما كسدت سوقهما، وتبعتهما ألفاف أمثالهما... ولا كان هذان المملوكان ممن إذا غاب أحضر، ولا ممن إذا غاب

(١) ابن عذاري: البيان المغرب القسم الثالث الخاص بالموحدين، ص٢٠٩.

(٢) مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق الدكتور سعد زغول عبد الحميد، ١٩٥٨م،ص١٠٧؛ ابن واصل، مفرج الكروب، تحقيق جمال الدين الشيال، ج٢، طبعة ١٩٥٧م، ص٣٦١- ٣٦٢.

(٣) ابن خلدون العبر، م٦، ص٢٩١.

(٤) ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص٢٠٩؛
وانظر، George Marçais; La Berberie Musulmane. Paris, 1964, p. 269.

(٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان، م٧، ص١٢؛ الروضتين، ج٢، ص١٩١، ٢٠٥، ٢٠٨؛ وانظر المقري، نفح الطيب، م١، ص٤٤٥؛ وتابعه في ذلك السلاوي في الاستقصا، ج٢، ص١٨٢.

افتقد... ومعاذ الله أن نأمر مفسدا بأن يفسد في الأرض"(١). ومن الجدير بالذكر أن قراقوش قد عاود أعماله ومبعوث الأيوبيين موجود بفاس. فلا شك أن الموحدين حسبوا أعمال قراقوش على الأيوبيين. حتى أنه يمكننا القول أن العلاقة بين الموحدين والأيوبيين أقل ما توصف به هي التوتر الخفي والتربص المستتر، ولم تسعفهم ظروف الصراع الخارجي للاشتباك المكشوف ، وبخاصة أن الموحدين، كانوا يرون في كل خارج عن طاعتهم، غير متبع لمذهبهم، مجسما كافرا يحل قتاله وقتله. وربما كان هذا من دوافع عدم نجدتهم لما طلبوا من الموحدين النجدة.

ومن هنا يحق لنا أن نتساءل هل كان ثمة علاقة بن جنوح قراقوش سنة ٥٨٦هـ إلى طاعة الموحدين وبين سفارة ابن منقذ التي أوفدها صلاح الدين في نفس العام إلى الخليفة الموحدي؟. لقد كان قراقوش مملوكا للملك المظفر تقي الدين بن شاهنشاه بن أيوب بن شادي، ابن أخي السلطان صلاح الدين، ومن الممكن أن يكون تصرف قراقوش بإيعاز من صلاح الدين حتى لا تواجه الصعاب مهمة سفيره. ومع ذلك لا يمكننا أن ننكر طبيعة قراقوش الذي لم يكن إلا مغامرا لا ذمام له، ولا يدين في الظروف التي يجوزها بدين الولاء لأحد.

- **تجدد الصراع بين يحيى بن غانية وقراقوش:** لم ييأس بنو غانية من جراء ما لحق بهم فبعد وفاة أخيهم علي ولوا على أنفسهم يحيى بن غانية أخو علي، الذي كان مثله شعلة تضطرم حقدا على الموحدين وتسعى لإسقاط دولتهم بأي ثمن(٢).

وكان ابتداء القلاقل من جديد أن قراقوش- الذي أظهر الإنابة والدخول في التوحيد- اتصل بالشيخ أبي زيد والي تونس وسكنها مدة، ما لبث أن فر إلى قابس ودخلها مخادعة، واستبد بها وأظهر الرجوع عن التوبة ثم إنه استدعى أشياخ العرب فقتل من أعيانهم سبعين شيخا في قصر العروسين(٣)؛ لأنه كان بحاجة إلى ثروتهم ليعيد بها تجهيز جيشه وحروبه، وكان قراقوش قد وضع كل ذخائره في قابس، فلما استولى عليها الموحدون خسر كل ما يملك(٤)، فكان لزاما عليه أن "يسلب" مالا آخر.

وبعد هذه المجزرة ضد العرب قوي أمر قراقوش، فسار إلى طرابلس فملكها، وأخذ يستولي على البلدان الواحدة تلوى الأخرى حتى ملك أكثر بلاد الجريد. فأثارت هذه التوسعات حفيظة يحيى بن غانية فقد كان يعتبر بلاد الجريد ملكه وقاعدته التي لا يجب أن تكون لأحد سواه.

وهكذا أحس الحليفان السابقان بخطر وجود كل واحد على الآخر، وسرعان ما اشتعل الخلاف بينهما، فسار يحيى إلى قراقوش والتقوا بموضع يعرف بمحسن قرب طرابلس، غير أن قراقوش انهزم هزيمة شنيعة، فأراد التحصن بطرابلس لكنه خشي أن يطبق عليه يحيى حصار من البر والبحر مستعينا بأخيه عبد الله في ميورقة، فتحصن بالجبال(٥)، وفعلا صدق حدس قراقوش فقد استعان يحيى بسفينتين، بعث بهما أخوه عبد الله من ميورقة، أطبق بهما يحيى الحصار على نائب قراقوش على طرابلس ياقوت

---

(١) الروضتين، ج٢، ص١٩٤- ١٩٥.

(٢) سالم، المغرب الكبير، طبعة ١٩٦٦م، ص٨٠٥.

(٣) التجاني، المصدر السابق، ص١٠٣.

(4)Miranda (A), Historia Politica del Imperio Almohade, vol. I, p. 362.

(٥) التجاني، نفس المصدر، ص١٠٤، ١٠٥؛ ابن خلدون، العبر، م٦، ص٢٢٩.

الافتخار حتى اضطره إلى الاستسلام، فقبض عليه يحيى وأرسله مصفدا إلى ميورقة(١). أما قراقوش فقد استقر بعد هذه الحادثة في ودان(٢). وبلغ ذلك يحيى فسار إليه واصطحب معه العرب، فحاصروه حتى فني طعامه، فسلم للعرب واشترط أن يقتلوه قبل ابنه، وكان شديد المحبة له، فقتلوه بظاهر ودان سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م(٣).

وخلا الجو بذلك ليحيى من أي معارض ذي بال في إفريقية، فلم يكن للوالي الموحدي على إفريقية أبو سعيد بن أبي حفص من العدة أو الكفاءة ما يجابه به بن غانية. وسرعان ما ولى يحيى على طرابلس ابن عمه تاشفين بن الغازي وسار ليستكمل الاستيلاء على المدن التي لم تدخل في طاعته بعد، فكانت قابس أول ضحاياه.

خاتمة

كانت ظروف العالم الإسلامي والأخطار المحدقة به تحتم قيام نوع من التنسيق بين جهود الموحدين والأيوبيين لمقاومة الأعداء، ولكن مع الأسف اتسمت العلاقات بين صلاح الدين وأبي يعقوب ثم المنصور الموحدي بعده، بطابع الفتور والحذر وانصراف كل منهما إلى أمور دولته.

يتجلى ذلك في تحليل الأسباب التي جعلت الخليفة المنصور الموحدي يبقي ابن منقذ منتظرا له ما يقارب العام، وهي مدة طويلة في ظل تلك الأخطار الجسام المحدقة من قبل الصليبيين على مصر وبلاد الشام. ومن هنا أرجح أن الخليفة الموحدي ربما فضل تأجيل الرد على سفارة صلاح الدين حتى ينتهي من الغزو والقضاء على خطر نصارى إسبانيا على أملاك الموحدين في الأندلس، قبل أن يرفض طلب صلاح الدين حتى لا يستجلب عدائه، مما يضع عليه مزيد من الضغوط والأخطار الأيوبية على أملاك الموحدين في شمال إفريقية وبلاد المغرب. ففضل الخليفة الموحدي أن يترك سفير صلاح الدين آملا في نصرة سيده، في الوقت الذي لم يكن لديه أدنى نية في مساعدة من يعتبرهم خصومه من الأيوبيين والعباسيين الطامعين في أملاكه.

لهذا أعتقد أن الموقف السلبي الذي اتخذه الخليفة الموحدي من رسالة صلاح الدين، يجب تفسيره في إطار الظروف المحيطة فقد جاء توقيت السفارة في ظروف صعبة شغل فيها الخليفة الموحدي أثناءها بأخطار ومشاكل مصيرية كان عليه أن يواجهها في شمال إفريقية والأندلس. كما أنه يجب علينا أن نأخذ في الاعتبار ما دار من معارك في إفريقية والمغرب الأدنى كان محورها تذبذب القبائل العربية بين الموحدين والأيوبيين، وما يترتب عليها من نتائج أبرزها موقع القسم الشرقي من بلاد المغرب بين الخلافتين الموحدية والعباسية، ثم موقف دولتين متنافرتين سياسيا ومذهبيا، فالدولة الأيوبية الناشئة تدين بالتبعية لخلافة دول عباسية متهالكة، والدولة الموحدية لا تقر إلا خلافتها الخاصة.

بالإضافة إلى أن الموحدين اعتبروا صلاح الدين مسئولا عن أعمال قراقوش وأعوانه في إفريقية، وهذا راجع إلى استغلالهم لاسمه في البداية، ثم كونهم مماليك أحد أعضاء الأسرة الأيوبية وهو تقي الدين ابن أخي صلاح الدين، مما أدى إلى وضع صلاح الدين في هذا المأزق وهو موقف لا يحسد عليه، رغم محاولته التملص من مسؤوليته عن أعمال قراقوش.

---

(١) رحلة التجاني، نفس المصدر، ص٢٤٤، ٢٤٥.

(٢) ودان: قال عنها الإدريسي: "جزائر نخل متصلة وعمارت كثيرة.... ومن مدينة سرت إلى أرض ودان خمس مراحل من الجنوب..... ولها آبار كثيرة ويزرعون بها الذرة وبغربيها غابات وحولها شجر التوت". الإدريسي، المصدر السابق، ص١١٥، ٣١٢.

(٣) التجاني، ص١١٠؛ ابن خلدون، العبر، م٦، ص٢٢٩؛ إتوري روسي، تاريخ ليبيا، ص٩٣.

ومع ذلك لا يمكننا أن نغفل الهدف الخفي من حملة قراقوش وأتباعه الترك ضد أملاك الموحدين بإفريقية، وما أسبغته الدولة العباسية من مساعدة ودعم لقراقوش وأعوانه، ما هو إلا نكاية بالموحدين الذي تلقبوا بألقاب الخلافة إذ اعتبرها العباسيون حقا لصاحب السيادة على الحرمين الشريفين.

ومهما كان من الأمر فإن الموحدين لم يتقاعسوا قط عن جهاد القوى الصليبية في الشرق الإسلامي كما أوضحنا، ولكن بأسلوبهم الحربي الخاص طبقا لمصالحهم وبما يوافق سيطرتهم البحرية على الملاحة في غرب البحر المتوسط وفي الوقت الذي يتناسب مع ظروف دولتهم.

المصادر والمراجع العربية:-

- ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أحمد الجزري) ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م: الكامل في التاريخ، الجزء ٩، ٨، دار صادر، بيروت ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- الإدريسي (الشريف أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله إدريس الحمودي) ت حوالي ٥٤٨هـ/ ١١٥٤م: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مجلدين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، بدون تاريخ.
- البنداري (الفتح بن علي): سنا البرق الشامي، "اختصار من كتاب البرق الشامي للعماد الكاتب الأصفهاني" تحقيق فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي بمصر ١٩٧٩م.
- التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد) ت ٧١٧هـ/ ١٣١٧م: رحلة التجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، تونس، المطبعة الرسمية ١٩٥٨م.
- الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم) توفي في أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق الدكتور إحسان عباس، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٤م.
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م: العبر وديوان المبتدأ والخبر، المقدمة، دار الكتب اللبناني، طبعة بيروت ١٩٩٢م.
- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر) ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٨- ١٩٧٨م.
- ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي) ت٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م: كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ١٩٧٢م.
- الزركشي (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن لؤلؤ) ت بعد ٩٣٢هـ/ ق ١٥م: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق الأستاذ محمد ماضور، الطبعة الثانية، المكتبة العتيقة، تونس ١٩٦٦.
- الزركلي (خير الدين): الأعلام قاموس لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين. والمستشرقين دار العلم للملايين بيروت لبنان، الجزء، ٨، ١٩٥٥م.

- السلاوي (أبو العباس أحمد بن خالد الناصري) ت ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق الأستاذ جعفر الناصري، محمد الناصري، الجزء الثاني، دار الكتاب، الدار البيضاء ١٩٥٤م.

- أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم الباجي) نهاية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي: تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، السفر الثاني، تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٨٧م.

- الصفاقسي (محمود بن سعيد مقديش): نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت لبنان، ١٩٨٨م.

- ابن عذاري المراكشي (أبو العباس أحمد بن محمد) كان حيا في ٧١٢هـ/ ١٣١٢م:

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الأول، تحقيق ومراجعة ج.س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية، دار الثقافة، بيروت، لبنان ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق الأساتذة محمد إبراهيم الكتاني، ومحمد بن تاويت، ومحمد بن زنيبر، وعبد القادر زمامة، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان ١٩٨٥م.

- ابن غلبون (أبي عبد الله محمد بن خليل): تاريخ طرابلس الغرب "المسمى التذكار" نشر الطاهر أحمد الزاوي، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤٩هـ.

- مجموع رسائل موحدبة، نشر الأستاذ ليفي بروفنسال، الرباط ١٩٤١م.

- مجموعة جديدة، "رسائل موجدية" تحقيق ودراسة أحمد عزاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، سلسلة نصوص ووثائق رقم (١)، الجزء الأول، الطبعة الأولى، جامعة ابن طفيل ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

- ابن المظفر (محمد بن عمر المظفر بن شاهنشاه، الأيوبي، أبو المعالي، ناصر الدين، المنصور) ت ٦١٧هـ: مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق الدكتور حسن حبشي، نشر عالم الكتب، القاهرة.

- المقريزي (أحمد بن علي): كتاب السلوك لمعرفة الملوك، الجزء الأول، القسم الأول، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، الطبعة الثالثة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ١٤١٧هـ- ٢٠٠٦م.

- مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية ١٩٥٨م.

- كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف أندلسي من أهل القرن الثامن الهجري، تحقيق الدكتور سهيل زكار، الأستاذ عبد القادر زمامة، دار الرشاد الجامعية، الدار البيضاء، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

- المراكشي (عبد الواحد بن علي) ب ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م: المعجب في تلخيص أخبار المغرب تحقيق محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م.

- النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م: نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الرابع والعشرون، تحقيق الدكتور حسين نصار، والدكتور عبد العزيز الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) ت ٦٩٧هـ: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ضبطه وحققه وعلق حواشيه وقدم له، دكتور جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية ١٩٥٧م.
- ياقوت(شهاب الدين أبو عبد الله الحموي)ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م:معجم البلدان،طبعة بيروت،١٩٥٥-١٩٥٧م.

المراجع:-

- جوليان (شارل أندريه): تاريخ أفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي، البشر بن سلامة، الجزء الثاني، الدار التونسية للنشر، تونس ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٩م.
- حسين (دكتور حمدي عبد المنعم): تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، دولة علي بن يوسف المرابطي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية ١٩٨٦م.
- سالم (الدكتور السيد عبد العزيز): المغرب الكبير (العصر الإسلامي)، الجزء الثاني، الإسكندرية ١٩٦٦م.
- عنان (محمد عبد الله): عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، وهو العصر الثالث من كتاب دولة الإسلام في الأندلس، القسم الأول، عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية، والقسم الثاني، الطبعة الأولى، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.
- عبد الكافي (أبو بكر): تاريخ صفاقس، الجزء الثاني، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، تونس ١٩٨٠م.
- المطوي (عبد الله): السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٦م.

المراجع الأجنبية:-

- ReiIIy (Bernard F.), Cristianos y musulmanes,(1031- 1157) historia de españa, VI, Traducción castellanade Jordin Betran, Barcelona, 1992.
- Huici Miranda (A), Historia Politica del lmperio Almohad vol.l, Tetuan 1956.
- Bourouiba (R.), Abd Al- Mumin flambeau des Almohades (S.N.E.D) alger1974.